كلية الآداب واللغات المستوى : السنة الأولى (ليسانس)

قسم اللغة والأدب العربي الأستاذ : عيسى بودوخة (علم النحو)

مقدمة في علم النحو

توطئة: علم النحو ، ويسمى أيضا (علم الإعراب) ، وهو علم يعرف به حال أواخر الكلم ، وهو علم يبحث في أصول تكوين الجملة ، وقواعد الإعراب ، فغايته أن يحدّد أساليب تكوين الجمل ، ومواضع الكلمات ، والخصائص التي تكتسبها الكلمة من ذلك الموضع ، سواء أكانت خصائص نحوية ، كالابتداء والفاعلية والمفعولية ، أو أحكاما نحوية ، كالتقديم والتأخير ، والإعراب والبناء .
والنحو ـ كما يقول ابن جِنّي ـ هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية والجمع ، والتصغيروالتكسير، والإضافة والنسب والتركيب ، وغير ذلك ، ليلحق مَن ليس مِن أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها ، وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحوا ، كقولك : قصدت قصدا ، ثم خُصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم .

ومن خصائص علم النحو تمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وتمييز المعرب من المبني، وتمييز المرفوع من المنصوب من المجرور من المجزوم، مع تحديد العوامل المؤثرة في هذا كله. وقد استُنبطَ كل هذا من كلام العرب بالاستقراء، إذ صار كلامهم الأول شعرا ونثرا ـ بعد نصوص الكتاب والسنة ـ هو الحجّة في تقرير قواعد النحو في صورة ما عُرف بالشواهد النحوية ، وهو ما استَشْهَدَ به العلماء من كلام العرب لتقرير القواعد .

نشأة علم النحو: تجمع أغلب الروايات على أن أبا الأسود الدُّؤَلِيّ (ت69هـ) هو واضع علم النحو العربي ، وفي رواية أخرى أنّ أبا الأسود لمّا وضع باب الفاعل والمفعول به ، زاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليْث أبوابا ... ولعل هذا الرجل يحْيى بن يعْمُر . وروى محبوب البَكْري عن خالد الحذّاء قال : (أوّل من وضع العربية نصر بن عاصم الليثي ، وقيل : عبد الرحمان بن هرمز . وقال أبو عُبيدة معْمَر بن المثنّى(/) : (أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عَنْبَسَة الفيل ، ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي .
كما تجمع الأدلة على أنّ نشأة النحو كانت بالعراق ، وقد نشأ بالبصرة ، وكلّ روّاده بصريون ، وأنّ الكوفة لم تخض غمار النحو إلّا بعد قرنٍ من الزمن .
دواعي نشأة علم النحو: قال أبو بكر الزبيدي في مقدمة كتابه (طبقات النحويين واللغويّين) : (ولم تزلْ العربيّة تُنْطقُ على سَجِيّتِها في صدر إسلامها وماضي

جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية ، واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها والوضح لمعانيها ، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين ، من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، وعظُم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم، وفساد كلامهم ، إلى أن سبّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنه) .

بوادر اللحن: بدأ اللحنُ خفيفا منذ حياة النبيّ(غ) ، فقد لحنَ رجل بحضرته ، فقال : [أرشدُوا أخاكم فإنّه قد ضلَّ] ، ويبدوا أنه كان معروفا بهذا الاسم ، فقد قال الصّدّيق (ا) : (لِأَنْ أقرأَ فأسقطَ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أقرأَ فألحنَ) . غير أن اللحنَ في صدر الإسلام كان لا يزال قليلا نادرا، حتى توسعت الدولة الإسلامية بالفتوحات،وخالط العربُ الأعاجمَ بالنسب والتجارة والتعليم ، فَفُسِحَ المجالُ للتحريف في العربية وشيوع اللحن في الخطاب . ومما يروى في ذلك أن عمرَ بن الخطّاب (ا) ورد إليه كتاب من وَالِيهِ على البصرة ، جاء فيه : (مِنْ أبو موسى الأشعري ...) ، فكتب إليه عمر أنْ " قَنِّعْ كاتبك سوطًا " . وقال عمر بن عبد العزيز(/) ، (إنّ الرجلَ لَيُكَلِّمُنِي في الحاجة يستوجبها فيلحن فأردّه عنها ، وكأنّي أقضمُ حَبَّ الرمّانِ الحامضِ ، لِبُغْضِي اسْتماعَ اللحن ، ويكلّمني آخرُ في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجِيبه إليْها الْتِذَاذًا لما أسمع من كلامه) .

أهمية علم النحو: علم النحو من أهم علوم اللغة العربية،إذ به تعرف صحة التراكيب من سقيمها ، كما يُتوصلُ به إلى تمييز حركات أواخر الكلمات بناءً على مواقعها في التراكيب ، والغرض من كل ذلك هو الاحتراز من الوقوع في أخطاء التأليف ، والاقتدار على الفهم والافهام .

ولأهمية علم النحو ، وعلوّ كعْبِه ، فقد نوّهَ به العلماءُ والعارفون ، ورفَعوا من شأنه ، وحثّوا طلاب العلم على النهل من معينه ، والاغتراف من بحره الزاخر ، فقد كان أيّوب السختياني يقول : (تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع ، وتركه هجنة للشريف) . ويقول ابن الأنباري:(إن الأئمة من السلف والخلف أجمعوا قاطبة على أنه (أي النحو) شرط في رتبة الاجتهاد ، وأنّ المجتهدَ لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يَعلمَ النحوَ، فيَعرفَ به المعاني التي لا سبيل لمعرفتها بغيره .

علم النحو والعلوم الشرعية: إنّ اللغةَ العربيةَ هي لغةُ الكتابِ والسنّةِ،ودون الإحاطة بعلومها لا يمكن فهمها فهما صحيحا، ومن أهمّها علم النحو،

قال ابن حزم الظاهري: (ولو سقط علم النحو لسقط فهم القرآن ، وفهم حديث النبيّ (غ) ، ولو سقط ، لسقط الإسلام ، فمن طلبَ النحوَ واللغة على نية إقامة الشريعة بذلك ، وليفهمَ بهما كلام الله تعالى ، وكلام نبيّه (غ) ، وليُفهمَه غيرَه ، فهذا له أجر عظيم ، ومرتبة عالية ، لا يجب التقصير عنها لأحد) .

وقال ابن جنّي: (إنّ أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد ، وحاد عن الطريقة المثلى، فإنما استهواه إلى ذلك، واستخفّ حِلْمَه ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة .

القرآن الكريم وعلم النحو: إنّ فهم القرآن الكريم مرتبط بمعرفة علم النحو ، لأنّ به يتم إحكام المعنى وتحديده ، وهو ضروري في تفسير لبقرآن الكريم .

يقول الإمام الشافعي(ت 204 هـ) :(من تبحّر في النحو اهتدى إلى كل العلوم) ، وقال أيضا: (لا أُسْألُ عن مسألة من مسائل الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو) .

لقد كانت أولى غايات النحو هي فهم القرآن الكريم ومقاصده ومعانيه ، ولا أحد ينكر مدى مساهمة النحاة في خدمة النص القرآني ، بالوقوف على مظاهر الإعجاز فيه ، ويدعم صاحب (الدلائل) بدعوته إاى تحصيل مَلَكَةَ النحو ، حتى لا تنغلق النصوص من القرآن الكريم على الفهم .

وأمّا عبد القاهر الجرجاني فيشُنُّ حملة شعواءَ على من زَهَدَ في علم النحو، وأصغرَ أمره ، فيقول: (وأمّا زُهْدُهم في النحو ، واحتقارُهم له ، وإصغارُهم أمرَه ، وتهاونُهم به ، فصنيعهم في ذلك أشنعُ من صنيعهم في الذي تقدّم (أي في الشعر) ، وأشبهُ بأن يكونَ صدًّا عن كتاب الله ، وعن معرفة معانيه ، ذاك لأنهم لا يجِدُون بُدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه . إذ كان قد عُلم أنّ الألفاظَ مغلقةٌ على معانيها حتّى يكونَ الإعراب هو الذي يفتحها ، وأنّ الأغْراضَ كامِنةٌ فيها حتّى يكونَ هو المسْتخْرِجَ لها ، وأنه المِعْيارُ الذي لا يُتَبَيَّنُ نُقصانُ كلامٍ ورُجْحانُه حتى يُعْرَضَ عليه ، والمقياسُ الذي لا يُعْرفُ صحِيحٌ من سقِيمٍ حتّى يُرجَعَ إليه ، ولا يُنكِرُ ذلك إلا مَنْ أنكَرَ حِسَّه ، وإلا مَنْ غالَطَ في الحقائِقِ نَفْسَه) . (دلائل الإعجاز ص38) .